﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين ، وهى صفة تدل على غفلتهم وحمق تفكيرهم ، فإنهم يحسبون انهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى ، وهل يستطيع بشر ان يخدع رب العالمين ؟

ان الله عليم بكل شىء ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر وماهو اخفى من السر ، وهل يوجد ماهو اخفى من السر ؟ نقول نعم ، السر هو ما اسررت به لغيرك ، فكأنه يعلمه اثنان ، انت ومن اسررت اليه . ولكن ما هو اخفى من السر ، ما تبقيه فى نفسك ولاتخبر به احدا ، انه يظل فى قلبك لا تسر به لانسان ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾

(سورة طه)

فلا يوجد مخلوق ، يستطيع ان يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم ، يحسبون انهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفى تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون هناك مقت وغضب .

وهم فى خداعهم يحسبون ايضا انهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون امامهم غير ما يبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم ، لأنهم يعيشون فى خوف مستمر ، وهم دائما فى قلق او خوف من ان يكشفهم المؤمنون ، او يستمعوا اليهم فى مجالسهم الخاصة ، وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الايمان ، ولذلك اذا تحدثوا لابد ان يتأكدوا اولا من ان احدا من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانيا من ان احدا من

المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدثون ، والخوف يملأ قلوبهم ايضا ، وهم مع المؤمنين ، فكل واحد منهم يخشى ان تفلت منه كلمة ، تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين . . والحقيقة انهم لايخدعون الا انفسهم . فالله سبحانه وتعالى ، يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق ، فإن لم يعلموه ، فإن الله يخبرهم به ،واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

ألم يأت المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهدوا انه رسول الله ففضحهم الله امام رسوله وانزل قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

جاء المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بصدق رسالته ، والله سبحانه وتعالى يعلم ان هذه الشهادة حق وصدق ، لانه جل جلاله ، يعلم ان رسوله صلى الله عليه وسلم ، صادق الرسالة ،ولكنه فى الوقت نفسه يشهد بأن المنافقون كاذبون. كيف ؟

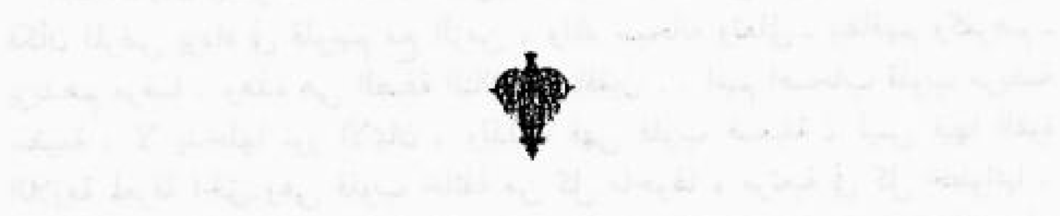
كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونون كاذبين ؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ولكن قلوبهم منكرة لذلك ، مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم انه حقيقة الا انهم يكذبون ، ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة مافى القلب ،

وهؤلاء كذبوا ، لأنهم فى شهادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعبرون عن واقع فى قلوبهم ، بل قلوبهم تُكَذِّبُ ما يقولون . .

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم يفضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين وينبىء رسوله صلى الله عليه وسلم بما يضمرونه فى قلوبهم ، اذن فخداعهم للمؤمنين ، رغم انه خداع بشر لبشر ، الا انه أحيانا تفلت السنتهم ، فتعرف حقيقتهم ، واذا لم يفلت اللسان ، جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم ، وتكون حصيلة هذا كله ، انهم لا يخدعون احدا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفلت السنة المنافقين فيكشفون انفسهم .

اذن فسلوك المنافق ، لايخدع به الا نفسه ، وهو الخاسر فى الدنيا والاخرة ، عندما يؤدى عملا ايمانيا ، فالله يعلم انه نفاق ، وعندما يحاول ان يخدع المؤمنين ، ينكشف ، والنتيجة انهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعا ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم الا الخسران المبين .



﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

فالله سبحانه وتعالى، شبه مافى قلوب المنافقين بأنه مرض، والمرض اولا يورث السقم، فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الايمانية التى تحيى القلب فتجعله قويا شابا، ولكنها قلوب مريضة، لماذا كانت مريضة؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ماحولها، واحست انها تعيش حياة ملؤها الكذب، فاضطراب القلب، جعله مريضا، ولايمكن ان يشفى الا بإذن الله، وعلاجه هو الايمان الحقيقى الصادق، ذلك الذى يعطيه الشفاء، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

اذن فالايمان والقرآن هما شفاء القلوب، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين، فكأن المرض يزداد فى قلوبهم مع الزمن، والله سبحانه وتعالى - بنفاقهم وكفرهم - يزيدهم مرضا. وهذه هى الصفة الثالثة للمنافقين.. انهم اصحاب قلوب مريضة سقيمة، لا يدخلها نور الايمان، ولذلك فهى قلوب ضعيفة، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق. وهى قلوب خائفة من كل ماحولها، مرتعبة فى كل خطواتها، مضطربة بين ما فى القلب وما على اللسان، والمريض لا يقوى على شىء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق، ولا تقوى على الصدق، ولا ترى ماحولها، تلك الرؤية التى تتناسب وتتفق مع فطرة الايمان، التى وضعها الله تعالى فى القلوب، ولذلك اذا دخل المنافقون فى معركة فى صفوف جيش المسلمين.. فأول مايبحثون عنه هو الهرب من المعركة، يبحثون عن مخبأ يختفون فيه، او مكان لايراهم فيه

احد ، والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لماذا ؟ لأنهم اصحاب قلوب مريضة ، لا تقوى على شيء ، ومرضها يجعلها تهرب من كل شيء ، وتختفي . وليت الامر يقتصر عند هذا الحد ، ولكن ينتظرهم في الاخرة عذاب أليم ، غير العذاب الذي عانوه من قلوبهم المريضة في الدنيا ، فيما كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ، ينتظرهم في الاخرة عذاب أليم اشد من عذاب الكافرين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة النساء)



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الفساد فى الارض هو ان تعمد الى الصالح فتفسده ، واقل ما يطلب منك فى الدنيا ، ان تدع الصالح لصلاحه ، ولا تتدخل فيه لتفسده ، فإن شئت ان ترتقى ايمانيا ، تأت للصالح ، وتزد من صلاحه ، فإن جئت للصالح وافسدته فقد افسدت فسادين ، لأن الله سبحانه وتعالى ، اصلح لك مقومات حياتك فى الكون ، .فلم تتركها على الصلاح الذى خلقت به ، وكان تركها فى حد ذاته ، بعدا عن الفساد ، بل جئت اليها ، وهى صالحة بخلق الله لها فأفسدتها ، فأنت لم تستقبل النعمة الممنوحة لك من الله ، بأن تتركها تؤدى مهمتها فى الحياة ، ولم تزد فى مهمتها صلاحا ، ولكنك جئت الى هذه المهمة فأفسدتها . . فلو ان هناك بئرا يشرب منها الناس ، فهذه نعمة لضرورة حياتهم ، تستطيع انت بأسباب الله فى كون الله ان تأتى وتصلحها ، بأن تبطن جدرانها بالحجارة ، حتى تمنع انهيار الرمال داخلها ، او ان تأتى بحبل واناء حتى تعين الناس على الوصول الى مياهها ، ولكنك اذا جئت وردمتها تكون قد افسدت الصالح فى الحياة .

وهكذا المنافقون . . انزل الله تعالى منهجا للحياة الطيبة للانسان على الارض ، وهؤلاء المنافقون بذلوا كل مافى جهدهم لإفساد هذا المنهج ، بأن تآمروا ضده وادعوا أنهم مؤمنون به ليطعنوا الاسلام من داخله .

ولقد تنبه أعداء الاسلام ، الى ان هذا الدين القوى الحق ، لا يمكن ان يتأثر بطعنات الكفر ، بل يواجهها ويتغلب عليها . فما قامت معركة بين حق وباطل الا انتصر الحق ، ولقد حاول اعداء الاسلام ان يواجهوه سنوات طويلة ، ولكنهم عجزوا ، ثم تنبهوا الى انهذا الدين لايمكن ان يهزم الا من داخله ، وان استخدام المنافقين فى الافساد ، هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين ، فانطلقوا الى المسلمين اسما ليتخذوا منهم الحربة التى يوجهونها ضد الاسلام ، وظهرت مذاهب

واختلافات ، وما اسموه العلمانية واليسارية وغير ذلك ، كل هذا قام به المنافقون فى الاسلام وغلفوه بغلاف اسلامى ، ليفسدوا فى الارض ويحاربوا منهج الله .

وإذا لفت المؤمنون نظرهم الى أنهم يفسدون فى الارض ، وطلبوا منهم ان يمتنعوا عن الافساد ، ادعوا انهم لايفسدون ولكنهم يصلحون ، واى صلاح فى عدم اتباع منهج الله والخروج عليه بأى حجة من الحجج ؟

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهكذا يعطينا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بأنهم كما أنهم يخدعون أنفسهم ولا يشعرون ويحسبون أنهم يخدعون الله سبحانه وتعالى والمؤمنين . كذلك فإنهم يفسدون فى الأرض ويدعون أنهم مصلحون، ولكنهم فى الحقيقة مفسدون، لماذا؟ . . لأن فى قلوبهم كفراً وعداء لمنهج الله، فلو قاموا بأى عمل يكون ظاهره الاصلاح، فحقيقته هى الإفساد، تماماً كما ينطقون بألسنتهم بما ليس فى قلوبهم.

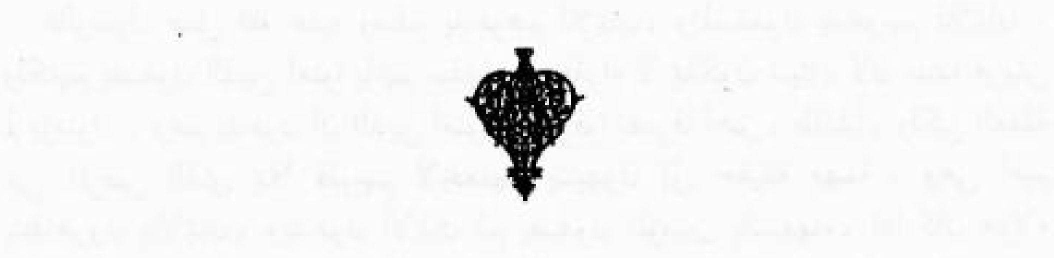
والكون لايصلح الا بمنهج الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق، وهو الذى أوجد، وهو أدرى بصنعته وبما يفسدها وبما يصلحها، لأنه هو الصانع، ولايوجد من يعلم سر ما يصلح صنعته أكثر من صانعها.

ونحن فى المنهج الدنيوى إذا أردنا إصلاح شىء اتجهنا لصانعه ؛ فهو الذى يستطيع أن يدلنا على الإصلاح الحقيقى لهذا الشىء ، فإذا لم يكن صانعه موجودا فى البلدة نفسها اتجهنا إلى من دربهم الصانع على الاصلاح ، أو إلى مايسمونه «الكتالوج»

الذى يبين لنا طريق الاصلاح، وبدون هذا لا نصلح، بل نفسد، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة فى حياتنا الدنيوية، ثم نأتى إلى الانسان والكون، فبدلاً من أن نتجه إلى صانعه وخالقه لنأخذ عنه منهج الاصلاح، وهو ادرى بصنعته، نتجه إلى خلق الله يضعون لنا المناهج التى تفسد، وظاهرها الاصلاح لكنها تزيد الأمور سوءا

والغريب أننا نسمى هذا فلاحا، ونسميه تقدما. ولكن لماذا لانتجه الى الصانع أو الخالق، الذى أوجد وخلق؟ هو سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وبما يصلحهم وما يفسدهم .

ومادام الحق سبحانه وتعالى، قد حكم على المنافقين، بأنهم هم المفسدون فذلك حكم يقيني ، وكل من يحاول أن يغير من منهج الله، أو يعطل تطبيقه بحجة الاصلاح، فهو مفسد وإن كان لايشعر بذلك، لأنه لو اراد اصلاحا لاتجه الى ما يصلح الكون، وهو المنهج السماوى الذى أنزله خالق هذا الكون وصانعه، وهذا المنهج موجود وَمُبَلَّغٌ ولا يخفى على احد.



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ١٣ ﴾

والسفهاء فى قصد المنافقين هم الفقراء، ولكن ما معنى السفه فى اللغة: السفه معناه الطيش والحمق والخفة فى تناول الأمور، فهل تنطبق صفة السفيه على المؤمنين، الذين آمنوا بالله، أو أنها تنطبق على أولئك الذين لم يؤمنوا بالله ؟ إذا كنتم تعتقدون أن الذين آمنوا هم السفهاء فلماذا تدعون الايمان كذبا، لتكونوا سفهاء؟ لاشك ان هناك تناقضاً موجوداً فى كل تصرفات المنافقين.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإيمان، والمسلمون يدعونهم للايمان، ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء أى فقراء لا يملكون شيئا، لأن سادة قريش لم يؤمنوا.. وهم يدعون أن الذين آمنوا، تصرفوا تصرفا أحمق، طائشاً، ولكن الغفلة هى المرض الذى يملأ قلوبهم لايجعلهم ينتبهون إلى حقيقة مهمة، وهى أنهم يتظاهرون بالايمان، ويدعون الايمان ثم يصفون المؤمنين بالسفهاء، اذا كان هؤلاء سفهاء كما تدعون. فهل تتظاهرون بالايمان لتصبحوا سفهاء مثلهم ؟!

إن المنطق لا يستقيم ويدل على سفاهة عقول المنافقين، انَّ هذه العقول. لم تتنبه إلى أنها حينما وصفت المسلمين بالسفهاء، قد أدانت نفسها، لأن المنافقين يدعون أنهم مؤمنون، إذن فكل تصرفات المنافقين فيها تناقض. تناقض مع العقل والمنطق، هذا التناقض يأتى من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض.. فاللسان يكذب القلب. والعمل يكذب العقيدة. والتظاهر بالايمان يحملهم مشقة الايمان ولايعطيهم شيئا من ثوابه. ولو كان لهم عقول، لتنبهوا الى هذا كله، ولكنهم لايشعرون وهم يمضون فى هذا الطريق، طريق النفاق، إنهم يجسدون السفاهة بعينها، بكل ما تحمله من حمق واستخفاف، وعدم التنبه إلى الحقيقة، والرعونة التى يتصرفون بها، والله سبحانه وتعالى حين وصفهم بالسفهاء، كان وصفا دقيقاً، لحالتهم وطريقة حياتهم.